ضرورة الحركة الإسلامية

إن تحقيق الحل الإسلامى المنشود ، الذى يتمثل فى بناء مجتمع إسلامى سليم وقيام حكم إسلامى رشيد ، واستئناف حياة إسلامية صحيحة ، لا يمكن أن يتم بالقرارات الحكومية الآلية ، ولا بالانقلابات العسكرية الثورية ، ولا بالوعظ والإرشاد وحده ، ولا بالخدمات الاجتماعية الجزئية .

إن الحل المنشود لا بد أن تسبقه « حركة إسلامية » ، حركة واعية شاملة ، حركة تمهد له ، وتدعو إليه ، وتعد له رجاله وأنصاره .

إن الدولة السنوسية سبقتها حركة دعوة وإحياء وتجديد . أو الدعوة السنوسية ، والدولة السعودية سبقتها الدعوة أو الحركة الوهابية .. وهكذا كل دولة تقوم على فكرة وعقيدة (أيديولوجية) .

وبعبارة أخرى : إن الحل الإسلامى لا بد أن يسبقه عمل إسلامى على مستواه .

والعمل الإسلامى المطلوب لا بد أن يكون عملاً جَماعياً ، قائماً على أساس من التنظيم والتخطيط ، حتى يؤتى أكله ، ويحقق أهدافه .

* *

● ضرورة العمل الجَماعى :

وإنما قلنا بضرورة العمل الجَماعى ، لأن هذا ما يفرضه الدين والواقع معاً :

(أ) فالدين يأمرنا بالاتحاد والتعاون على البر والتقوى ، وهذا من أخصِّ أعمال البر والتقوى وأهمها وأشدها خطراً .

(ب) والقرآن يطالبنا فيقول : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ [1] ..

---

(١) آل عمران : ١٠٤

obeikandl.com

والأمة ليست مجموعة أفراد متناثرين ولا مجرد جماعة ، جاء فى تفسير المنار : « والصواب أن الأمة أخصّ من الجماعة ، فهى الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم ووحدة يكونون بها كالأعضاء فى بِنْية الشخص » .

(جـ) والقاعدة الشرعية تقرر : « أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » ، وإقامة مجتمع إسلامى تحكمه عقيدة الإسلام وشريعته ، أمر واجب ، ولا سبيل إلى تحقيق هذا الواجب إلا بجماعة وأمة .

(د) والواقع يرينا أن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، وأن جهود الأفراد مهما توافر لها من إخلاص ، لا تستطيع أن تؤثر التأثير المطلوب لتحقيق الهدف المنشود ، لأنها ضعيفة الطاقة ، محدودة المدي ، وقتية التأثير . وقد يكون الأفراد كثيرين ، ولكن تعدد الاتجاهات ، واختلاف المسالك ، وفقدان الربط والتنسيق بين العاملين ، يبعثر الجهود ويضعف من تأثيرها . أما العمل الجَماعى ، فيضم الجهود بعضها إلى بعض ، وينسق بينها ، ويوجهها إلى خدمة الهدف المقصود ، ويجعل من اللبنات الضعيفة بمفردها بنياناً مرصوصاً يشد بعضه بعضاً .

(هـ) وإذا نظرنا إلى القُوَى المناوئة للإسلام - على اختلاف أسمائها وأهدافها ووسائلها - وجدناهم يعملون فى صورة جماعات وتكتلات وأحزاب وجبهات ، ولا يُقبل - فى ميزان الشرع ولا العقل - أن يُقابَل الجهد الجَماعى المنظم ، بجهود فردية مبعثرة ، وإنما يُقابَل التكتل بتكتل مثله أو أقوى منه ، ويُقابَل التنظيم بالتنظيم ، كما قال أبو بكر لخالد : حاربهم بمثل ما يحاربونك به ، السيف بالسيف ، والرمح بالرمح ، والنبل بالنبل .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [1] .. أى إن لم يوال

(١) الأنفال : ٧٣

بعضكم بعضاً ، وينصر بعضكم بعضاً ، كما يفعل الكفار ، تحدث الفتنة والفساد ، لاتحادهم وتفرقكم وتناصرهم وتخاذلكم .

* *

● ضرورة التنظيم :

ولا بد للعمل الإسلامى المثمر من التنظيم ، فلا يكفى أن يكون جَماعياً حتى يكون منظّماً ، بل لا يكون جَماعياً حقيقة إلا بتنظيم . والتنظيم يعنى وجود قيادة مسئولة ، وجندية مطيعة ، ونظام أساسى ينظم العلاقات بين القيادة والجنود ، ويحدد المسئوليات والواجبات ، ويبين الأهداف والوسائل ، وجميع ما تحتاج إليه الحركة فى إدارة أجهزتها . وأكتفى هنا بالحديث عن عنصرى القيادة والجندية .

● القيادة المسئولة :

والإسلام يحرص على التنظيم فى كل شىء ، حتى فى الأمور العادية المتكررة مثل السفر ، وفى الجماعة الصغيرة التى لا يزيد عددها على ثلاثة . ففى الحديث النبوى : « إذا كنتم ثلاثة فأمِّروا أحدكم » [1] . وهذا رمز إلى التزام التنظيم فيما هو أعظم وأكبر من الرفقة فى السفر ، وفيما هو أكثر عدداً وأرفع شأناً من ثلاثة من المسافرين .

*

(١) رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود مرفوعاً باسناد حسن ، كما فى تخريج الإحياء للحافظ العراقى . وأخرج البزار والحاكم عن عمر : أنه قال : « إذا كنتم ثلاثة فى سفر ، فأمِّروا عليكم أحدكم . ذا أمير أمَّره رسول الله ﷺ » . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، وأقره العراقى .

● متى تكون القيادة شرعية :

ولا تكون القيادة شرعية حقاً إلا إذا جاءت نتيجة الاختيار الحر والبيعة الصحيحة ، لا بالضغط ولا بالمناورات .

والأصل فى القيادة أن تكون فردية ، فهذا هو الموافق لظاهر النصوص والسوابق الإسلامية ، وهو الذى يجعل للقيادة سرعة الحركة ، والقدرة على تصريف الأمور .

ولكن لا مانع فى بعض الظروف من وجود قيادة جَماعية ، خروجاً من خلاف واقع ، أو تفادياً لنزاع يُتوقع ، أو ترقباً لقائد قوى ، أو نحو ذلك من الاعتبارات ، التى قد توجبها الضرورات ، فتقدّر بقدرها ، ولا داعى للانفعالات والتشنجات ضد القيادة الجَماعية ، إذا اقتضتها المصلحة فى بعض الأحيان . فقد أجاز الفقه الإسلامى إقرار إمامة غير المجتهد ، بل إمامة الفاسق ، وإمامة المتغلب إذا كان من وراء الإقرار مصلحة أكبر ، وخيف من جرّاء الرفض مفسدة أعظم . وحيث تتحقق المصلحة فثَمَّ شرع اللّه .

والقيادة الشرعية هى التى تتخذ الشورى قاعدة لها فيما ليس فيه نص ثابت صريح ملزم لا معارض له ، وفيما له طبيعة الأمر العام الذى يهم جميع الناس أو جمهورهم ، وهو الذى جاء فيه قوله تعالى فى سورة الشورى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (١) .. وفى سورة آل عمران : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾ (٢) ..

وهى التى تنزل عن رأيها إلى رأى الأكثرية من أنصارها ورجالها ، وإن خالف فى ذلك مَن خالف من الفقهاء قديماً ومن الدعاة حديثاً ، فالرأى الأرجح الذى يطمئن إليه القلب : أن الشورى ملزمة لأسباب واعتبارات أظهرها :

---

(١) الشورى : ٣٨ (٢) آل عمران : ١٥٩

١ - إن هذا يتفق مع ما قرره فقهاء الأمة من تسمية أعضاء شورى المسلمين « أهل الحل والعقد » فإذا كان رأيهم غير ملزم ، ويمكن أن يُضْرَب به عرض الحائط ، فماذا يحلون ويعقدون ؟!

وقد فُسِّر « أولوا الأمر » فى قوله تعالى : ﴿ وَأُولِى الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (١) .. بهؤلاء ، فهم الذين يختارون الحاكم أو الأمير ، وهم الذين يراقبونه ، وهم الذين يعزلونه .. إلخ .

٢ - ما فعله النبى ﷺ فى غزوة أُحد من الخروج إلى المشركين ، نزولاً على رأى الأغلبية المتحمسة ، وما فعله عمر فى قضية الستة أصحاب الشورى من التزام رأى الأكثرية العددية ، واعتبار عبد اللّه بن عمر مرجِّحاً ، إذا افترقوا إلى ثلاثة وثلاثة ، إلخ ، وإقرار الصحابة لذلك ، كل ذلك يدل على أن الشورى ملزمة ، وأن رأى الأغلبية معتبر .

٣ - ما ذكره ابن كثير فى تفسير نقلاً عن ابن مردويه عن علىّ مرفوعاً فى تفسير العزم فى قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٢) .. قال : « العزم مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم » .

٤ - إن الاستشارة من غير التزام برأى المشيرين ، ولو كانوا جمهور الأمة أو أهل الحل والعقد فيها ، يجعل الشورى شبه « مسرحية » يضحك الحاكم المتسلط بها على الناس ثم ينفذ ما فى رأسه هو !

٥ - إن تاريخ الإسلام فى الماضى البعيد والحاضر القريب ، ينطق بأن الاستبداد بالرأى هو الذى قوَّض دعائم القوة والخير فى حياة المسلمين ، وجرَّأ الطغاة على أن يعبثوا بمقدرات الأمة كما يشاءون ، دون أن يخشوا شيئاً ، أو تُوَجه إليهم كلمة ، لأنهم غير ملزمين بمشورة أحد أو رأيه !

---

(١) انظر تفسير الرازى والنيسابورى والمنار للآية ٥٩ من سورة النساء .

(٢) آل عمران : ١٥٩

٦ - إن الإنسان بطبيعته ظلوم جهول ، ورأى الفرد لا يؤمن انحرافه ، لغلبة الهوى فيظلم ، أو غلبة الجهل فيضل ، ولهذا كان رأى الاثنين أقرب إلى الصواب ، وإلى العدل والعلم من رأى الواحد ، وإن كان الخطأ من الجميع محتملاً .

٧ - إن الأغلبية التى تشير بالرأى تتحمل مسئوليته ، وتتقبل نتائجه أياً كانت ، وهذا ما يجعل الأمة شريكة الحاكم ، فى الصواب والخطأ ، والخير والشر ، ويغرس فيها معانى القوة والكرامة والإحساس بالذات ، ويدربها على أن تقول « لا » بملء فِيْها ، وتلزم بها .

٨ - إن الالتزام بشورى الأغلبية وإن كان فيه خلاف ، ينبغى أن يكون موضع اتفاق اليوم إذا تراضت عليه جماعة ما ، وتشارطوا على الأخذ بهذا الرأى ، فهنا يرتفع الخلاف ، ويصبح واجباً على الجميع أن ينفذوه ، لأنه نوع من الوفاء بالعهود التى أمر اللّه برعايتها .. وفى الحديث : « المسلمون عند شروطهم » .

* *

● الجندية المطيعة :

والجندية التى نعنيها هى التى تنفذ ما تؤمر به ، ملتزمة طاعة القيادة فى اليُسر والعُسر ، والمنشط والمكره متنازلة عن رأيها الفردى لرأى الجماعة . ما لم يكن معصية بيقين ، فلا طاعة حينئذ لمخلوق فى معصية الخالق .

وإنما قلنا « معصية بيقين » لأن هناك أموراً مختلفاً فيها بين الحِلّ والحُرمة ، وفيها أكثر من رأى فلا يجوز للفرد أن يتصلب فيها ، ويتمسك برأيه الشخصى إذا ألزمته الجماعة بغيره .

هَبْ أن الحركة طلبت إلى شاب من أبنائها ألا يعفى لحيته لأنه فى موقع ترى من المصلحة للدعوة التى يحملها ألا يظهر بهذا المظهر المميز الذى يجلب عليه شراً ، أو يعوقه عن الإنتاج للحركة ، أو يُسلّط عليه أضواء قد تضر به

وبدعوته . أو غير ذلك . وفقه الحركة فى ذلك أن هناك من العلماء مَن قال بكراهة حلق اللحية ، ومنهم - وهم الأكثر - مَن قال بحُرمته .. فإذا أخذت برأى مَن يقول بالكراهة فقط ، فإن الكراهة تزول بأدنى حاجة . فكيف إذا كانت هذه الحاجة مصلحة الدعوة والجماعة ؟

وقد يكون الأمر حراماً فى ظاهره ، ولكن يضطر الإنسان إليه ، تفادياً للوقوع فى محرّم أكبر ، وارتكاباً لأخف الضررين ، وأهون الشرين .

اضطرت يوماً إحدى الجماعات الإسلامية المحافظة أن توصى بانتخاب امرأة مرشحة لرئاسة الجمهورية ، مع ما فى ذلك من مخالفة لحديث : « لن يفلح قوم ولّو أمرهم امرأة » . ولكنها لجأت إلى ذلك لتُسقط فى الانتخاب طاغية من الرجال ، تخشى شره على البلد ، وعلى الإسلام والمسلمين . وانتخاب المرأة للرياسة العامة حرام ، وانتخاب الطاغية المتجبر لها حرام أيضاً . ولكن المرأة الضعيفة أقل ضرراً ، وأهون شراً من الرجل الطاغية ، وأدنى ما فى الأمر أن التخلص منها أسهل وأيسر ، والتخلص من الطاغية من العُسر والصعوبة بمكان . ولكن الذين يأخذون الأمور بدون تعمق وتأمل أنكروا على الجماعة الإسلامية موقفها ، وشنّعوا بذلك عليها . مستغلين عواطف الدهماء من المسلمين الذين لا يقدرون على الموازنة بين المصالح والمفاسد .

* *

● ضرورة التخطيط :

ومعنى التخطيط : ألا تدع الحركة نفسها للظروف والمصادفات تُسَيِّرها سيراً عشوائياً اعتباطياً ، تعمل ما لا تريده ، وتريد ما لا تعمله ، وتُدفع دفعاً إلى السير فى غير طريقها ، وإنما يجب أن تسير فى خط واضح المعالم ، محدد المراحل ، بيِّن الأهداف ، معلوم الوسائل .

وليس هذا من التهجم على الغيب ، أو التألى على الله ، أو المعارضة للقَدَر ، كما قد يفكر بعض عوام المتدينين ، فإن الإسلام يدعو الإنسان إلى أن يأخذ من يومه لغده ، ومن شبابه لهرمه ، ومن صحته لسقمه ، ومن فراغه لشغله . وهذا كله نظرة إلى المستقبل .

وقد قصّ علينا القرآن قصة يوسف عليه السلام ، وفيها تخطيط اقتصادى تموينى لمدة خمس عشرة سنة ، قام عليه النبى الكريم يوسف تفكيراً وتنفيذاً ، ولا يضيرنا أن مصدر هذه الخطة من إلهام الله ليوسف وتعليمه إياه من تأويل الأحاديث والرؤى ، فهذا لا تأثير له فى الحكم المستنبَط من القصة ، وهو شرعية التخطيط للمستقبل ، الذى ذكره القرآن فى معرض التمدح والامتنان .

والمتأمل فى سيرة النبى ﷺ يرى أن مراحلها وخطواتها لم تمض ارتجالاً ، ولم تتم اعتباطاً ، بل تمت بعد تفكير وتدبير يسدده الوحى عند الاقتضاء .

فإذا نظرنا إلى هجرة أصحابه إلى الحبشة أو هجرتهم وهجرته إلى المدينة وجدنا خطة واضحة وراء ذلك ، لا يصعب على الدارس استبانتها . وإلا فلماذا أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة خاصة ؟ لماذا لم يختر لهم بلداً قريباً أو أرضاً عربية ؟ ولماذا أذن للبعض بالهجرة دون البعض ؟ ولماذا لم يلحق بهم مهاجراً إلى الحبشة ؟ إن الجواب عن هذا كله يدل على أن الأمر لم يكن مرتجلاً ، بل وراءه هدف وخطة .

والتخطيط يعنى التفكير الهادىء ، والدراسة المستوعبة لكل عمل يريد الإنسان أن يقدم عليه حتى يمضى فيه على هدى وبينة ، ويمشى على صراط مستقيم .

ولا نجد ديناً دعا إلى التفكير كالإسلام ، الذى اعتُبِر التفكير فيه فريضة وعبادة .

ودعا إلى دراسة كل أمر ذى بال يقدم عليه المسلم ، ومن هنا جاء الأمر بالشورى والحث عليها ، ووصف المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم . والفرد المسلم

مطالَب بأن يستشير فى أموره الخاصة حتى لا يندم ، فكيف بالأمور الكبيرة ، والشئون العامة ؟

وطالما سمعنا الشكوى تلو الشكوى من الخطط الجهنمية المحكمة التى تحاك للإسلام وأمته ودعاته . وطالما اعتذر أهل الإسلام ورجاله عندما تصيبهم المحن والفتن ، أو تأخذ بخناقهم الأزمات والشدائد ، بأن هذا من مخططات أعداء الإسلام ، فالصهيونية تخطط ، والشيوعية تخطط ، والصليبية تخطط ، والاستعمار بمختلف ألوانه يخطط ، حتى الوثنية تخطط ، والجميع يخططون لضربنا نحن ، وتعويق حركتنا حتى لا نسير ، وإذا سرنا كان سيرنا فى غير الطريق الموصل إلى الهدف ، وإذا سرنا فى الطريق ملئوه بالحفر والحجارة والمعوقات ، حتى تتحطم قوانا قبل الوصول إلى ما نريد .

ولكن إلى متى نظل نحن الأمة التى يخطط عدوها لضربها فينجح ؟ لماذا لا نخطط نحن لأنفسنا ؟ لماذا لا نُفسد على عدونا خطته ؟ أليس لنا عقول كما لهم ؟ أليست لدينا طاقات وإمكانات قد لا تتوافر كلها لديهم ؟! أليس لنا عقيدة تمدنا بالهداية ، وتاريخ يمدنا بالقوة ، وحضارة تشعرنا بأننا أهل لأن نسود ونقود ؟! بلى واللّهِ .

إن الذى ينقصنا هو جدية التفكير ، وجدية العمل ، وصدق الاتجاه ، وتجميع المواهب والقدرات لتنظر بأناة ، وتفكر بهدوء ، وتوازن بحكمة ، منتفعة بتجارب التاريخ ، ومستقرئة لنماذج الواقع ، غير متعصبة لقديم ، ولا مفتونة بجديد . وحينئذ سننتهى لا محالة إلى خير كثير ، وتخطيط سليم ، على قدر جهد بَشر غير معصومين .

*

● عناصر التخطيط المرجو :

والتخطيط الذى نريده للحركة الإسلامية يقتضى تحديد عدة أمور :

١ - تحديد الأهداف التى تسعى الحركة إلى تحقيقها ، مرتبة حسب الأولوية ، مع وجوب التمييز بين الأهداف الأساسية والأهداف الثانوية ، وبين الأهداف القريبة ، والأهداف البعيدة ، وبين الأهداف المرحلية والأهداف الثابتة .

٢ - تحديد الوسائل إلى هذه الأهداف ، سواء أكانت وسائل ثقافية وفكرية ، أم وسائل عملية وتربوية ، أم وسائل سياسية ، أم وسائل عسكرية ، أم غير ذلك من الوسائل .

وقد تأخذ بهذه الوسائل كلها ، وقد تأخذ ببعضها دون بعض ، وقد تأخذ ببعضها فى مرحلة دون أخرى .

ويجب - بصفة عامة - أن يراعى فى وضع الوسائل للغايات والأهداف ما يلى :

(أ) أن تكون الوسائل مشروعة فى نظر الإسلام . فالإسلام لا يرى الوصول إلى الحق بطريق الباطل ، فإن اللّه طيب لا يقبل إلا طيباً ، ونظرية « الغاية تبرر الوسيلة » مرفوضة شرعاً .

(ب) أن تكون ملائمة لطاقة الحركة ، وظروف المجتمع ، فمن الوسائل ما لا يُقدر عليه ، ومنه ما يُحمد فى بيئة دون أخرى .

(جـ) أن تكون مرنة ، قابلة للتطوير والتغيير ، عند تغير الظروف الزمنية أو البيئية ، فليست الوسائل أبدية .

(د) مراعاة التدرج فيما يحتاج إلى تدرج ، اقتداء بمنهج التشريع الإسلامى فى فرض الفرائض وتحريم المحرّمات .

(هـ) أن تكون واقعية بحيث تضع المعوقات والموانع فى الحسبان .

٣ - تحديد المراحل : مرحلة التعريف والتبليغ .. مرحلة التكوين واستخلاص

العناصر .. مرحلة الصراع والامتحان .. مرحلة النضج والتمحيص .. مرحلة الترقب والوصول ..

وليست هذه المراحل مرتبة ترتيباً آلياً ، كل واحدة تلى الأخرى حتماً ، فقد يبدأ التعريف والتكوين فى وقت واحد ، وقد يتقدم الثانى عن الأول ، وقد يبكر الصراع عن موعده ، وقد يتأخر . فالعوامل المتحكمة فى سير الأحداث كثيرة ، منها ما يحسبه الناس وما لا يحسبونه . والذين تنبأوا بحتميات معينة - مثل « كارل ماركس » - أخطأوا الحساب ، وكذّبهم التاريخ .

٤ - تحديد المواقف : موقف الحركة من الأديان الأخرى .. من العقائد اللادينية .. من الأحزاب السياسية .. من الجماعات الدينية .. من المذاهب الفقهية .. من الحكومات الوطنية .. من استخدام القوة .. من القوى العالمية .. من الحركات القومية .. من الانقلابات العسكرية .. من الانتخابات النيابية .. إلخ .. على أن يتسم هذا التحديد بوضوح الرؤية ، وسعة الأفق ، والبُعد عن المؤثرات العارضة ، والتفرقة بين المواقف « الاستراتيجية الثابتة » والمواقف « التكتيكية » المرنة .. ولا بد أن يتم ذلك كله بعد دراسة فاحصة ومقارنة على أعلى المستويات ، وأدق الاختصاصات فى الحركة ، ولا بأس أن تستعين بكل ذى خبرة فى ذلك .

*

● ما لا يدخل فى التخطيط :

ولا يدخل فى التخطيط ما يراه بعض الناس من تبنى أحكام تفصيلية فى كل قضية من قضايا الفقه والتشريع ، فى كل المجالات : السياسية ، والاقتصادية ، والمالية ، والإدارية المدنية والدولية ، فإن فى هذا تحجير ما وسّع الله ، وإلزام الأمة بما لا يلزمها ، وتحكماً فى تقدير أمور لم تحدث بعد ، ولا ندرى حين تقع ، ماذا يكون حجمها وأثرها ووقعها وملابساتها .

كما أن كثير من هذه المسائل تحتاج إلى « اجتهاد جَماعى » من أهل الاختصاص الجامعين لشروط الاجتهاد ، أما رأى يصدر عن فرد أو اثنين أو ثلاثة لا يُدرى مَن هم ، ثم تُلْزَم به الأمة ، فشىء لا يُقبل ، ولهذا رأينا كثيراً من هذه الآراء المتبناة غاية فى الغرابة ، وضيق الأفق فى النظرة إلى الشرع وإلى الحياة .

وفى مقابل هؤلاء رأى مضاد لهم على طول الخط ، يرى أن من العبث مجرد عرض أسس النظام الإسلامى ، أو مجرد الإسهام فيما يسمى « تطوير الفقه الإسلامى » . وحُجَّة هذا الرأى أن الناس يجب أن يؤمنوا أولاً بالإسلام ، وبحاكمية اللّه . فإن فعلوا كان من اليسير تقديم نظام الإسلام ، وتشريع الإسلام ، عندما يقوم مجتمع الإسلام .

وفى هذا الرأى من الغلو مثل ما فى مقابله ، ودعوة الناس إلى الإسلام قد تكون بعرض عقيدته ، وقد تكون بعرض نظامه للحياة ، وبيان ما فى العقيدة أو النظام من مزايا وحسنات ، تجمع للناس خيرى الآخرة والأولى .

فجماهير الناس فى بلادنا مؤمنة بعقيدة الإسلام ، ولكن بعض المثقفين منهم بلبلت أفكارهم فى صلاحية نظامه للحياة المعاصرة ، والمجتمع المتطور ، فمن الرفق بهؤلاء أن نُقدِّم لهم النظام مبينين محاسنه ، حتى نطرد الشك باليقين .

والخير عندى هو الوَسَط : أن يقوم علماء الحركة الإسلامية بصفاتهم الشخصية بعرض أسس النظام الإسلامى ، بل بتوضيح خطوطه التفصيلية ما استطاعوا ، وإعداد دراسات علمية مستفيضة فى كل جانب ، ففى ذلك خدمة للحاضر ، وتحضير للمستقبل ، والأمر يحتاج إلى مجال أوسع لمناقشته . وفى هذه الإشارة ما يكفى الآن .

*

● التخطيط والقَدَر :

وأود أن أنبه هنا إلى أمر ، هو أن التخطيط السليم لا يقتضى - بالضرورة - الوصول إلى الهدف .

والتأخر فى الوصول إلى الهدف لا يعنى خطأ الحركة ، أو عدم سلامة التخطيط ، أو استقامة الخط ، فإن المعوقات كثيرة ومتنوعة ، وليس زمامها بيد الإنسان حتى يذللها لإرادته . وإنما هو بيد القَدَر الأعلى . ورحم اللّه شوقى حين قال :

قدَّرتُ أشياء وقدّر غيرها قَدَرٌ يخط مصاير الإنسان !

إن على الإنسان أن يعمل ، وليس عليه أن ينجح . وقديماً أدرك الناس ذلك فقال شاعرهم :

علىٌ السعى فيما فيه نفعى وليس علىٌ إدراك النجاح !

وليس من الصواب قياس خيرية الأعمال وشرعيتها أو حقية المناهج وبطلانها ، بنتائجها وثمراتها ، فالعمل خير إذا جاء بنتائج حسنة ، وشر إذا لم يجىء بذلك ، والمنهج حق إذا أثمر النجاح وباطل إذا لم يحققه . كما هو مذهب « الذرائع » أو « البرجماتية » .

المطلوب من الإنسان أن يبذر الحَبّ ويرجو الثمار من الرب . ليست هذه صوفية ، ولكنها واقعية .

وقد يختار الإنسان الحَبّ الجيد ، فيبذره فى التُربة الجيدة ، ويتولاه بالسقى والتسميد والرعاية المستطاعة ، حتى ينبت وينمو ويترعرع ، فما يكاد يبدو نوره وزهره حتى تعصف به الرياح فتحرقه ، أو تنزل به الآفات السماوية فتهلكه . فماذ عسى أن يوجه إلى هذا الزارع من ملام ، وليس بيده تصريف الرياح ، ولا إبعاد الآفات ؟!

ولقد لقيتُ أناساً فى الأردن منذ اثنتين وعشرين عاماً يقولون : إن الحركة التى لا تنتصر فى ثلاثة وعشرين عاماً - وبعضهم قال فى ثلاثة عشر عاماً - لا بد أن يكون سيرها غلطاً ، وطريقها خطأ .

وإنما قدّروا هذه المدة لأنها الزمن الذى عاشته الدعوة المحمدية حتى تم لها النصر والفتح وأقامت دولة اللّه فى الأرض .

وأذكر مما قلت لهم يومئذ : ما قولكم فى سيدنا نوح عليه السلام ؟

قالوا : رسول من اللّه ، ومن أولى العزم من الرسل .

قلت : وكم مكث يدعو قومه إلى دعوته ؟

قالوا : ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كما ذكر القرآن .

قلت : هل نجح فى دعوته إذا كانت الدعوة تقاس بالنتائج ؟

قالوا : وما آمن معه إلا قليل .

قلت : لقد ذكر القرآن على لسانه قوله : ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلاَّ فِرَاراً * وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوْا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوْا وَاسْتَكْبَرُوْا اسْتِكْبَاراً ﴾ (١) .. يعنى أنهم بلغ بهم الإعراض عنه أنهم لا يريدون أن يسمعوا صوته ، ولا أن يروا شخصه !

ورغم تطاول القرون ، وظهور أجيال بعد أجيال ، جاء اللاحق كالسابق فى الكفر والفجور ، حتى قال نوح لربه : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوْا إِلاَّ فَاجِراً كُفَّاراً ﴾ (٢) ..

هذا مع حُسن دعوته واستمراره عليها ، وتلوينه لأساليبها وأوقاتها ، كما قال

---

(١) نوح : ٥ - ٧ (٢) نوح : ٢٧

القرآن عنه : ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ (١) .

تُرَى هل كان نوح يسير فى دعوته على صواب أم على خطأ ؟

إن الذى يحكم على الدعوات بنتائجها يُخَطِّئ شيخ المرسلين نوحاً عليه السلام ، مع أنه بلَّغ فأحسن ، وجادل فأفحم ، حتى قال له المشركون يوماً بعد أن غُلبوا وانقطعوا : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) ..

* *

● مهمة الحركة الإسلامية :

لقد أصبح من الضرورى إذن أن تقوم فى كل بلد إسلامى « حركة إسلامية » واعية شاملة ، تحمل عبء الدعوة إلى تطبيق النظام الإسلامى ، وإحياء المجتمع الإسلامى ، وتكوين الجيل المحمدي ، الذى يمهد السبيل للعودة إلى حكم القرآن ودولة الإسلام .

ولا شك أن حركة كهذه لا بد أن تكون مهمتها ثقيلة وخطيرة ، ولا يقوم بها ، ويصبر عليها إلا أولو العزم من الرجال الذين باعوا أنفسهم للّه ، ووهبوا حياتهم لنصرة دينه ، غير مبالين بما يصيبهم من نَصَب أو بلاء فى سبيل اللّه .

إن مهمة الإنسان فى الحياة مهمة كبيرة لمن يقدِّرها حق قدرها ، لأنها مهمة الخلافة فى الأرض والعبادة للّه ، والعمارة للحياة . وهى مسئولية ضخمة صَوَّر القرآن ضخامتها وثقلها حين قال : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ﴾ (٣) ..

---

(١) نوح : ٨ - ١٢ (٢) هود : ٣٢ (٣) الأحزاب : ٧٢

ومهمة الإنسان المسلم أعظم وأضخم من مهمة أى إنسان آخر ، فقد ورث المسلم تركات الأنبياء والرسل جميعاً ، واختص الله أمة الإسلام بالرسالة الخاتمة ، والشريعة العامة الخالدة ، وكلّفهم - مع تنفيذها والعمل بها - تبليغها ونشرها والدفاع عنها ، وهداية العالم إليها . لتتحقق بها رحمة الله للعالمين . وإنها لتبعة عظيمة ، ومسئولية ثقيلة ، ولا غَرو أن خاطب الله صاحب هذه الرسالة بقوله : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (١) ..

ومهمة المسلم الحريص على دينه ، الغيور على أمته ، فى هذا الزمن - زمن الفتن وغلبة الشهوات على الأنفس ، والشبهات على العقول ، والماديات على الحياة - أصبحت أشد ضخامة ، وأعظم ثقلاً . فقد بات القابض على دينه كالقابض على الجمر ، وأصبح الدعاة إلى الإسلام الحق غرباء وهم فى أوطانهم ، وأصبح الدعاة إلى الإلحاد والإباحية والمذاهب المستوردة ، يجهرون بدعواتهم غير هيَّابين ، ولا وجلين ، لأنهم مسنودون من جهات متعددة ، ومن قُوَى مختلفة ، ظاهرة وخفية ، فى الداخل والخارج ! ولهذا ورد فى الحديث : إن للعامل فى مثل هذا الزمن أجر خمسين من العاملين قبله (٢) . وذلك لأنهم كانوا يجدون على الخير أعواناً ، ولا يجد على الخير أعواناً .

وكل هذا يجعل مهمة أية حركة إسلامية فى عصرنا - الذى تداعت فيه الأمم على الإسلام تداعى الأكلة إلى قصعتها (٣) - غاية فى العظم والخطورة . ويوجب عليها العمل الدائب ليل نهار ، والجهاد الدائم فى كل ميدان ، وسد

---

(١) المزمل : ٥

(٢) كما يدل على ذلك حديث أبى ثعلبة الخشنى عن أبى داود والترمذى وابن ماجه . وفيه : « فإن من ورائكم أياماً ، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم » وحسّنه الترمذى .

(٣) إشارة إلى حديث رواه أبو داود عن ثوبان مرفوعاً .

الثغرات المفتوحة هنا وهناك ، واليقظة للأعداء المتربصين فى الخارج ، والتنبه للقُوَى العميلة فى الداخل ، حتى تستطيع تحقيق أهدافها ، وإحباط مؤامرات خصومها .

* *

● متى تنجح الحركة الإسلامية :

وإنما تنجح الحركة الإسلامية فى تحقيق الحل الإسلامى ، وإقامة المجتمع الإسلامى ، واستئناف حياة إسلامية . إذا توافر لها أمور ثلاثة :

١ - جيل مسلم :

الأمر الأول : جيل مسلم تقوم الحركة على تكوينه تكويناً إسلامياً صحيحاً متكاملاً . يكون هذا الجيل بمثابة الدعائم أو الركائز للمجتمع الإسلامى المنتظر .

وإذا كان دعاة الاشتراكية يصرون على أن المجتمع الاشتراكى لا يبنيه إلا الاشتراكيون ، فدعاة الإسلام أولى أن يقولوا : إن المجتمع المسلم لا يبنيه إلا الإسلاميون .

ولهذا لم يقم المجتمع الإسلامى والحكم الإسلامى فى المدينة ، إلا بعد تكوين الجيل الإسلامى الأول فى مكة ، وعلى مناكب هؤلاء ومَن انضم إليهم من خيار الأنصار قامت الدولة المسلمة .

ولقد سئل أحد الدعاة الإسلاميين يوماً : كيف يتصور قيام حكم إسلامى راشد ؟

فأجاب : بأحد طريقين : إما أن ينتقل الإيمان إلى قلوب الحاكمين ، وإما أن ينتقل الحكم إلى أيدى المؤمنين .

ولو أن الإيمان يسهل انتقاله إلى قلب الحاكمين بالفعل ، لاختصرت الطريق اختصاراً ، وكفى اللّه المؤمنين القتال .

ولكن يبدو أن هذا ليس أكثر من حلم لذيذ ، لا يمت إلى الواقع بصلة ، فإن مَن شبَّ على شيء شاب عليه ، ومَن شاب على شئ مات عليه . وهؤلاء الحكام قد شبوا وشاخوا على العلمانية ، وتتلمذوا صغاراً وكباراً على الفكر الغربى بشقيه . فهيهات هيهات أن يولوا وجوههم شطر غيره ، ولو كان هذا الغير هو دينهم الذى ورثوه عن آبائهم ، والذى ارتضى اللّه لهم ، وارتضوه - نظرياً - لأنفسهم .

فلم يبقَ - إذن - إلا الشق الثانى ، وهو : أن ينتقل الحكم إلى أيدي المؤمنين : أيدى الجيل المسلم ، الذى آمن بالإسلام عقيدة وعبادة وخُلُقاً ورابطة ونظام حياة .

يُشترط فى هذا الجيل أن يتميز بعدة صفات :

الأولى : الإيمان العميق بالرسالة ، وسمو أهدافها ، وسلامة طريقها ، وانتصارها . وهذا أساس العمل كله .

الثانية : أخلاق الإيمان من التضحية والإيثار ، والصبر والشجاعة والبذل ، والإخلاص والصدق ، بحيث لا يغريه وعد ، ولا يثنيه وعيد ، ولا يقعد به شح هالع ، ولا جُبْن خالع . وهذا يحتاج إلى تربية مدروسة ، طويلة المدى ، عميقة الجذور ، يقوم عليها رجال « ربانيون » .

الثالثة : الوعى الشامل : وعى الرسالة ، ووعى الذات ، ووعى الموقف . وبهذا يعرف فكرته ورسالته ، ويعرف نفسه وموقعه ، ويعرف عدوه وصديقه . وهذا يتطلب مدداً دائماً من التثقيف المركز المتكامل ، ما بين شرعى وحركى وسياسى .. إلخ ، بحيث تكون دعوته « على بصيرة » كما أمر اللّه تعالى .

الرابعة : الترابط الوثيق على هذه الدعوة ، ترابطاً يعلو على كل الروابط العنصرية والإقليمية والطبقية والأسرية

الخامسة : الاستمرار فى حمل الدعوة ، والعمل الدؤوب على نشرها وكسب الأنصار والجنود لها ، بغير كلل ولا ملل ولا يأس ولا توقف ، مهما ساءت

الظروف . ورحم الله يوسف الصدِّيق الذى لم يمنعه السجن عن نشر دعوته بين السجناء .

السادسة : الانتشار فى عامة القطاعات والمجالات : الشعبية والرسمية ، والمدنية والعسكرية .

السابعة : أن يضم هذا الجيل عدداً كافياً من المفكرين والقياديين من ذوى النبوغ والكفاية ، وأصحاب المواهب والقدرات العالية فى كافة التخصصات والمجالات : العلمية والأدبية والنظرية والعملية ، يكونون أهلاً لثقة الشعب ، والنهوض بعبء بناء المجتمع الجديد .

٢ - قاعدة جماهيرية إسلامية :

والأمر الثانى الذى يجب أن يتوافر للحركة الإسلامية الناجحة : وجود قاعدة جماهيرية لها من كافة طبقات الشعب . وذلك عن طريق تكوين رأى عام إسلامى يناصر الفكرة الإسلامية ، يحب دعاتها ، ويكره أعداءها ، ويحرص على انتصارها .

فلا يكفى أبداً أن تربى الحركة جيلاً مسلماً مخلصاً . لا يحس به الشعب ، ولا يعرفه ولا يتحمس له ، لأنه فى عزلة عنه ، يكلمه من بعيد ، وينظر إليه من فوق ، كأن هذا الشعب لا يتكون من ابن عمه وأخيه ، ومن جيرانه وذويه ، وفصيلته التى تؤويه ، حسبه أن يعيش فى خلوته الروحية يعبد ربه ، أو فى خلوته الفكرية يقرأ كتابه ، تاركاً الناس يواجهون مشاكلهم وحدهم . مع أن الآخرين من أصحاب العقائد والمذاهب لن يتركوهم . بل سيحاولون أن يكسبوهم إلى جانبهم . ومع أن المفروض أن يكونوا مع الإسلام ودعاته .

لا بد إذن من العناية بمشكلات الشعب ، وأن ننزل نحن إليه ، لا ننتظر صعوده إلينا . ولا بد من كسبه إلى جانب الحركة الإسلامية .

وهذا يتطلب تصحيح الأفهام المغلوطة التى راجت لدى المتعلمين العصريين من مثل : فصل الدين عن الدولة وعزله عن الحياة ، والخلط بين مفاهيم التحرر

والتحلل ، والإيمان بالعلم مقابل الإيمان بالدين ، وتصور الدين معوقاً للعمل للحياة والاستمتاع بالطيبات ، وإشاعة الماركسيين أن الدين مخدر الشعوب .... إلى غير ذلك من الأفكار والمفاهيم التى تقف حجر عثرة فى طريق الدعاة إلى حكم الإسلام .

ومما يساعد الحركة الإسلامية على تكوين هذه القاعدة الجماهيرية المتغلغلة فى قُوَى الشعب المختلفة ، أن شعوبنا لا زالت - بحمد الله - مع الإسلام ، حتى الذى ينحرف عن الإسلام بسلوكه ومعاملته ، تجده مع الإسلام بعاطفته وقلبه ، ما زالت كلمة « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » تلمس فى أعماق المسلم وتراً حساساً ، وتهز فؤاده هزاً عميقاً .

وما زالت آيات القرآن الكريم هى التى يرتعش لها كيان المسلم كله ، كلما خاطبه بها داعية مخلص .

٣ - التغلب على المعوقات :

الأمر الثالث الذى يجب أن يتوافر لنجاح الحركة الإسلامية : هو التغلب على المعوقات والموانع التى تقف حائلاً بينها وبين الوصول إلى أهدافها وغاياتها بكل سبيل . إذ لا يكفى لقيام أمر ما أن تتحقق موجباته ، بل لا بد أن تنتفى معوقاته أيضاً ، أو كما يقول أهل الأصول والفقه : وجود المقتضى وانتفاء المانع .

ولا ريب أن هناك معوقات شتّى تعترض طريق الحركة الإسلامية ، لا بد من مراعاتها ودراستها ومحاولة التغلب عليها .

*

● معوقات من جهة الشعب :

هناك معوقات شعبية نفسية تعزل مجموعة من الجماهير المسلمة عن الحركة الإسلامية ينبغى أن نضعها فى الاعتبار .

من أهم هذه المعوقات :

١ - الجهل بالإسلام ، وبالدعوات المنافية للإسلام ، وبحقيقة الحركة الإسلامية .

٢ - اليأس من انتصار الحركة الإسلامية ، والاعتقاد بأنها حركة لا مستقبل لها .

٣ - الخوف من الاضطهاد المتكرر ، والضربات الوحشية المتلاحقة للأعضاء والمناصرين ، حتى المساندين من بعيد .

وعمل الحركة هنا هو مقاومة الجهل بالعلم ونشر الوعى الصحيح .

ومقاومة اليأس ببث الأمل ، وزرع الرجاء ، مع التنبيه على ضرورة العمل ووجوب السعى والمحاولة أيّاً كانت النتائج .

ومقاومة الخوف بتقوية الإيمان ، الذى يُهوِّن كل تضحية فى سبيل الله ..

*

● معوقات مادية من جهة القوى المناوئة :

وهناك معوقات مادية تتمثل فى القوى المناوئة للعودة إلى حكم الإسلام ، والتى تعمل بكل قوة ، وبأية وسيلة ، لإجهاض أية محاولة جادة وصادقة لتحقيق هذه العودة المفروضة على المسلمين بحكم إيمانهم . من هذه المعوقات :

(أ) وجود نفوذ أجنبى قوى ، وخصوصاً إذا كان يتمثل فى وجود عسكرى . فهذا لا يسمح قط بانتصار الحركة الإسلامية ، مهما كلّفه ذلك من تضحيات . ولهذا كان تحرير البلد من السيطرة الأجنبية شرطاً لازماً لتحقيق الحل الإسلامى .

(ب) وجود حكم عسكرى علمانى متمكن . فهو أيضاً لا يسمح للحركة الإسلامية بالوجود ، فضلاً عن أن يسمح لها بالانتصار . ولهذا كان التحرر من طغيان الحكم العسكرى المتسلط ضرورة إسلامية ووطنية ، وشرطاً لنجاح الحركة الإسلامية .

(جـ) وجود ظروف إقليمية أو دولية معاكسة ، وخصوصاً أننا نعلم أن القوى العالمية المتصارعة فيما بينها إلى حد الاقتتال ، على أتم الاستعداد لأن تتصالح وتتصافح ، وتتساند وتتعاضد ، إذا كان العدو هو الإسلام ، وكان الخطر من جهة الإسلام . وصدق ما قاله فقهاؤنا : الكفر كله ملّة واحدة ، وصدق اللّه قبل ذلك حين قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (١) .. ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

*

● معوقات من داخل الحركة نفسها :

وهناك معوقات أخرى لعلها أشد خطراً من تلك المعوقات التى أشرنا إليها ، ونعنى بها : المعوقات التى تبرز من داخل الحركة نفسها . ومنها :

(أ) اختلاف الكلمة :

فإن من أهم مميزات الجماعة المسلمة قوة الرابطة بين أبنائها ، لأنها تقوم على وحدة العقيدة ، ووحدة المفاهيم ، ووحدة الهدف ، ووحدة التنظيم ، بجانب المعنى الروحى الذى ينبع من الإيمان ، ويجعل كل أخ عند أخيه بمنزلة نفسه . فإذا انعدمت هذه الميزة فقد فتحت على نفسها باب وهن وضعف لا يسده شىء .

فتصبح الحركة الواحدة المنسجمة فى الظاهر ، مجموعة حركات متباينة فى الواقع ، نتيجة لاختلاف المفاهيم ، أو اختلاف الولاءات ، أو اختلاف المطامع ، أو غير ذلك ، مما يُصدِّع بنيان الوحدة الفكرية والشعورية ، ثم السلوكية والتنظيمية فى الحركة ، وهذا هو سبيل الفشل ، وبداية الانهيار ، ومفتاح الطريق للعدو ليتسلل ويضرب من الداخل وهو آمن . وهذا ما حذّر منه اللّه ورسوله : ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (٣) ..

---

(١) الأنفال : ٧٣ (٢) الجاثية : ١٩ (٣) الأنفال : ٤٦

وقد كان مؤسس الحركة الإسلامية الحديثة الشهيد حسن البنا كثير التحذير لأتباعه من الاختلاف والتفرق . ومما كان يقوله لأتباعه :

« أنا لا أخشى عليكم من أعدائكم ، بل أخشى عليكم من أنفسكم .. لا أخشى عليكم الإنجليز ولا الأمريكان ولا الروس ولا غيرهم .. وإنما أخشى عليكم أمرين :

١ - أن تتخلوا عن الله تعالى ، فيتخلى الله عنكم .

٢ - أو أن تتفرقوا فيما بينكم ، فلا تجتمعوا إلا بعد فوات الفرصة » .

(ب) حب الدنيا :

وهو فى الدعوات الربانية رأس كل خطيئة ، وأصل كل مفسدة ، فإن الأصل فى قيام الحركة أنها عبادة لله ، وأداء لفريضة الجهاد والدعوة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعبادة يجب أن تكون خالصة لله من شوائب الشرك والوثنية : ﴿ وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (١) .. والوثنية ليست عبادة صنم من الحجر أو غيره فحسب ، بل عابد الدينار أو الدرهم عابد وثن ، وعابد متاع الدنيا وزينتها عابد وثن .

ومن خلال حب الدنيا تتفتح منافذ واسعة لشياطين الجن وشياطين الإنس ينفذون منها إلى قلوب الدعاة ، فيسيل لعابهم إلى المناصب ، وتتطلع نفوسهم إلى المكاسب ، وهذا مكمن الداء ، وسر الوهن الذى يضعف الأفراد والأمم وهو ما نبّه عليه النبى ﷺ حين حذّر من الوهن فسئل : ما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » (٢) .

(جـ) حب الذات :

وهو فرع عن حب الدنيا ، أو جزء منه . ونعنى به : أن يحرص عضو الحركة على البروز والظهور ، وألا يعمل إلا فى الصدارة والصفوف الأولى ، وأن

---

(١) البينة : ٥ (٢) رواه أبو داود .

يجرى وراء بريق الشهرة والبحث عن الأضواء ، وإذا أتيح له مكان بارز يوماً ، استقتل للبقاء فيه ، وإزاحة كل منافس من طريقه ، وتحطيم كل شخصية يخشى أن تزاحمه . ولهذا قيل : حب الظهور كم قصم الظهور ، وهذه هى آفة الآفات فى كثير من البارزين من رجال الدعوات الربانية حتى الصُوَّام القُوَّام منهم : أن يذكروا ذواتهم وينسوا ربهم ، مع إعلانهم المتكرر بأن اللّه هو الغاية وأن رضوانه هو المنتهى . ومع علمهم بأن مقامهم عند اللّه لا يُنال بالشهرة ولا بالمنصب فـ « رُبَّ أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على اللّه لأبرّه » . وإنما تنتصر الرسالات بالجنود المجهولين الذين جاء فيهم الحديث الشريف : « إن اللّه يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا حضروا لم يُعرفوا ، وإذا غابوا لم يُفتقدوا » ، والحديث الصحيح الآخر : « طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل اللّه ، أشعث رأسه مغبرة قدماه ، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع » يعنى أنه مغمور خامل الذِكر ، لا يُشار إليه بالأصابع ، ولا يقيم المجتمع له وزناً .

إن حب الذات حينما يتمكن ويسيطر على النفس يصبح عبادة للذات ، أو عبادة للهوى ، والهوى شر إله عُبِدَ فى الأرض .

(د) العزلة عن قوى الشعب :

ونعنى به أن « تتقوقع » الحركة ، وتنغلق على نفسها ، تقيم بينها وبين الناس حجاباً أو حُجباً ، فبدل أن تكون حركة للمسلمين جميعاً ، تغدو حركة فئة محدودة من الفئات . أشبه ما تكون بفرقة دينية ، لها مذهبها ووجهتها الخاصة ، فى حين أنها تعبر عن الإسلام العام ، إسلام القرآن والسُنَّة ، وعن أمة الإسلام فى كل دولة ، وقد تعين الحركة على نفسها وزيادة عزلتها بأمور ، منها :

١ - نزعة الاستعلاء على الجماهير المسلمة ، ومخاطبتها من عَلٍّ ، باعتبارها ضالة هالكة مع ما جاء فى الحديث الصحيح : « إذا رأيتَ الرجل يقول : هلك الناس ، فهو أهلكُهم » - بضم الكاف - أى أقربهم هلاكاً ، أو أشدهم هلاكاً ، وفى رواية : « أهلكَهم » - بفتح الكاف - أى كان سبباً فى هلاكهم .

٢ - ومن ذلك اعتبار الشعوب فطعاناً تُساق بالعصا ، لا أناسيّ تُساس بالعقل . لأنهم يصفقون لكل حاكم ! فهذا ليس صحيحاً على إطلاقه .

٣ - الشعور باليأس من استجابتها وتأييدها ، مع أن الخير كامن فى طبيعة شعوبنا ، والتدين أصيل فى فِطرتها .

٤ - رميها بالفسوق أو اتهامها بالكفر ، مع تحذير النبى ﷺ من ذلك . فإن الأصل هو حمل حال المسلم على الصلاح ، وتحسين الظن به ما وُجِد إلى ذلك سبيل .. أى سبيل .

٥ - مطالبة العامة من الناس بما يطالَب به الخواص من حملة الدعوة ، ومحاسبتهم على ذلك مع ما يجب مراعاته من الفرق بين أولئك وهؤلاء . فصاحب الدعوة يُطلب منه ما لا يُطلب من سائر الناس ، من اجتناب الصغائر ، بل اتقاء الشبهات ، والبُعد عن المكروهات . والحرص على السنن والآداب ومظاهر المروءة ، لأنه موضع قدوة ونظر من الناس . أما جمهور الناس فينبغى التسامح معهم فى كثير من ذلك ، حتى يكفينا منهم أن يجتنبوا الكبائر ، ويؤدوا الفرائض .

حتى بعض مرتكبى الكبائر قد يكون ذا عاطفة دينية حية ، فهو يحب الإسلام وإن لم يعمل به ، وينتصر لدعاته وإن لم ينضم إليهم . فهذا يُستفاد منه ويتألف قلبه إذا رُجِىَ من ورائه خير . وقد قال النبى ﷺ لمن لعن رجلاً من الصحابة تكرر شربه للخمر : « لا تلعنه ، فإنه يحب اللّه ورسوله » !

إن عزل الحركة الإسلامية عن الشعب واستعلاءها عليه خطأ وخطر معاً . إذ يعنى هذا أن جماهير الشعب التى يجب أن تساند الحركة وتناصرها - لأنها تعبر عن آمالها ، وعقائدها ، وتدافع عن دينها ودنياها معاً - تغدو فى موضع الخصم للحركة ، والمناوىء لها ، وهذا خذلان عظيم .

(هـ) الجمود :

وأعنى بالجمود : تحجر الحركة على أسلوب معيَّن فى الدعوة ، أو طريقة معيَّنة فى العمل ، أو شكل معيَّن فى التنظيم ، لا ترضى عنه بدلاً ، ولا تبغى عنه حولاً . وإن ظهر ضعف أثره ، أو ثبت فشله ، أو حالت الحوائل القاهرة دون الانتفاع به .

ومثل ذلك الجمود على لون واحد من التكفير ، لا تحيد عنه ، ولا تقبل غيره، بل ترفض مجرد المناقشة فيه ، أو حوله ، وكل حوار من هذا النوع يُقاوَم ويوصف بالهرطقة أو الخروج عن الصف ، أو إثارة الفتنة ، أو غير ذلك من الألفاظ التى تشيع فى جو الجمود .

ومعنى هذا هو تحريم كل لون من ألوان الاجتهاد ، وإغلاق بابه ، وإيجاب « التقليد » و « التمذهب » فى الحركة كالذين أوجبوا التقليد والتمذهب فى الفقه والجمود على الأقوال المنصوص عليها ، والأحكام المحفوظة ، وربما كانت هذه الأقوال والأحكام مناسبة لزمنها وبيئتها ، غير مناسبة لزمن آخر ، وبيئة أخرى .

إن الجمود أبرز دلائل الموت ، والحركة من أظهر علامات الحياة . هذا واضح فى الكائنات الحية عموماً ، وفى الإنسان خصوصاً .

والجماعة الحية كالفرد الحى ، لا تستطيع أن تثبت حيويتها إلا بقدرتها على الحركة والتجدد أمام الأحداث ، فإذا سُدَّ عليها طريق شقت لنفسها طريقاً آخر أو طُرقاً ، وإذا أُغلق فى وجهها باب فتحت لنفسها باباً آخر أو أبواباً .

قد تُغلق دور الجماعة الرسمية ولكن لن تُغلق أمامها أبواب المساجد ، ولو مُنعت الحديث العام فى المسجد ، فلن يستطيع أحد منعها من الحديث الفردى إلى الناس .

وقد تُصادَر صحيفة الحركة ، أو تُمنع أصلاً من إصدارها ، ولكن رجالها يستطيعون الكتابة فى صحف الآخرين . ولو مُنِع أفرادها من الكتابة فى

الصحف ، فلن يمنعوا تأليف الكتب والرسائل ، ولو مُنِعوا ذلك لكان عليهم أن يفكروا فى غيره وغيره .

وهكذا إذا توقف العمل بأسلوب وجب البحث عن أسلوب غيره ، وإذا تعسَّر العمل فى مجال وجب فتح مجال غيره ، ولو بالهجرة إلى مكان آخر .

وإذا اقتضت الظروف تجميد نشاط معيّن أو تقليصه ، لأن ضرره أكبر من نفعه ، وخسائره أكثر من مكاسبه ، أو لأن جوانب أخرى من النشاط أكثر نفعاً ، أو أحوج إلى التركيز ، فلا بأس بذلك ، ولا حَرَج فيه .

وإذا اقتضت الظروف كذلك التخلى عن عنوان معيّن أو اسم خاص ، فلا مانع منه ، إذا كان من ورائه مصلحة الدعوة ، وخدمة أهدافها .

إن النبى ﷺ قَبِلَ فى معاهدة الحديبية أن يمحو : « بسم اللّه الرحمن الرحيم » ليُكتب فى موضعها : « باسمك اللّهم » ويمحو : « محمد رسول اللّه » ليُكتب بدلها « محمد بن عبد اللّه » لأن محو هذه العبارات على ورقة لا يمحو البسملة من مصاحف المسلمين ، ولا من صدور الحفّاظ ، ولا ألسنة القرّاء ، وكذلك رسالة محمد ، سيظل يشهد بها الألوف والملايين فى الأذان والإقامة والصلاة .

إن المرونة فى الوسائل والأساليب والشكليات دليل الحيوية ، وخصوبة التفكير ، وسعة الأفق ، وسماحة النفس ، وهى التى تغيظ الكفار ، وتحير الخصوم ، وقديماً قال الشاعر :

إلبس لكل حال لبوسها إما نعيمها وإما بؤسها !

أما الشىء الذى نَصِرُّ عليه ، فهو « الثبات » على مبادىء الإسلام الأساسية وقيمه العليا ، وأهدافه الكبرى للحياة وللإنسان ، وإن سمىّ بعض الناس هذا « جموداً » فنِعْم الجمود هو ، ولا يضرنا الأسماء متى وضحت المسميات .

إن الاستمساك بالحق ، والثبات عليه ، والإصرار على نصرته ، ورفض التهاون فيه أو التنازل عنه أو المساومة عليه ، ليس جموداً ولا تعصباً ، بل هو

مقتضى الإيمان والإسلام ، وإنما الجمود والتعصّب حقاً هو التعصّب للأشكال لا للحقائق ، وللأشخاص لا للمبادىء ، وللأسماء لا للمسميات . الجمود القاتل هو التحجر الذى ذكرناه ، ووقف الاجتهاد فى تطوير المناهج ، وتجديد الأساليب ، وابقاء كل قديم على قِدَمه ، لا لشىء إلا لأنه قديم ، وإن تغيّرت الأوضاع ، وتبدلت الظروف ، وتطورت الأحوال . مع أن المناهج والوسائل يجب أن تلين للزمن ، وتستجيب لمقتضيات التطور ، ما دام ذلك فى إطار النصوص المحكمة والقواعد العامة للإسلام .

إن العالَم يتغير ، والحياة تتطور ، وليس كل ما كان ملائماً بالأمس يلائم اليوم ، فقد كان الحصان أسرع وسائل المواصلات بالأمس ، فهل يجوز الاعتماد عليه اليوم فى عصر الصاروخ ومراكب الفضاء ؟!

* *

● ضعف التنظيم والتخطيط :

ونعنى به : ضعف الصلة بين القيادة والجنود ، فلا تعرف القيادة فى القمة ماذا يعتمل فى أنفس الجمهور فى القاعدة ، ولا تعرف القاعدة ماذا عند القيادة من أفكار وأخبار ومواقف ، إما لضعف الإرسال فى القيادة ، أو لعجز الاستقبال فى القاعدة .

وقد تكون الصلة قائمة ، وقد تصل الأفكار والمعلومات أولاً بأول ، ولكن الثقة غير متوافرة ، وضعف الثقة يخل بمبدأ الالتزام بالسمع والطاعة فى المنشط والمكره ، ولا تنجح حركة ، ما لم يستمر أفرادها على الالتزام بهذا المبدأ ، مستعدين لتنفيذ الأمر ولو كان مخالفاً لرأيهم فى سبيل مصلحة الجماعة الكبرى .

ومثل ذلك ضعف التخطيط للمستقبل ، وغلبة الارتجال ، وترك الأمور تجرى فى أعنتها ، على طريقة « الجبريين » الذين يرون الإنسان مُسيَّراً لا مُخيَّراً ، وما هو إلا كريشة فى مهب الريح ، تقلبها كيف تشاء ، أو طريقة « الآنيين »

الذين يستمتعون بالحاضر ، دون اعتبار بالماضى ، ولا تأهب للمستقبل ، على حد ما قال الشاعر :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها !

* *

● فقدان الروح العلمية :

وللروح العلمية سمات أبرزها :

١ - النظرة الموضوعية إلى المواقف والأشياء والأقوال والأعمال ، بغَضِّ النظر عن الأشخاص ، كما قال علىّ بن أبى طالب : « لا تعرف الحق بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله » .

٢ - احترام الاختصاصات كما قال القرآن : ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ (١) .. ﴿ فَأسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (٢) .. ﴿ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٣) ، فللدين أهله ، وللاقتصاد أهله ، وللعسكرية أهلها ، ولكل فن رجاله وخاصة فى عصرنا ، عصر التخصص الدقيق . أما الذى يعرف فى الدين والسياسة ، والعلوم والفنون ، والشئون الاقتصادية والعسكرية ، ويفتى فى كل شىء ، فهو فى الحقيقة لا يعرف شيئاً .

٣ - القدرة على نقد الذات ، والاعتراف بالخطأ ، والاستفادة منه ، وتقويم تجارب الماضى تقويماً عادلاً ، بعيداً عن النظرة « المنقبية » التى تنظر إلى الماضى على أنه كله مناقب وأمجاد ! والنظرة التشاؤمية التى تعتبره كله أخطاء ومثالب !

٤ - استخدام أحدث الأساليب ، وأقدرها على تحقيق الغاية ، والاستفادة من تجارب الغير ، حتى من الخصوم ، فالحكمة ضالة المؤمن ، أنّى وجدها فهو أحق

---

(١) الأنبياء : ٧ (٢) الفرقان : ٥٩ (٣) فاطر : ١٤

بها ، والانتفاع بالعلم الحديث والتكنولوچيا العصرية وما تقدمه من تسهيلات وإمكانات هائلة .

٥ - إخضاع كل شيء - فيما عدا المسلّمات الدينية والعقلية - للفحص والاختبار ، والرضا بالنتائج كانت للإنسان أو عليه .

٦ - عدم التعجل فى إصدار الأحكام والقرارات ، وتبنى المواقف ، إلا بعد دراسة متأنية ، مبنية على الاستقراء والإحصاء ، وبعد حوار بنّاء ، تظهر معه المزايا ، وتنكشف المآخذ والعيوب .

٧ - تقدير وجهات النظر الأخرى ، واحترام آراء المخالفين فى القضايا ذات الوجوه المتعددة ، فى الفقه وغيره ، ما دام لكل دليله ووجهته ، وما دامت المسألة لم يثبت فيها نص حاسم يقطع النزاع . ومن المقرر عند علمائنا : أن لا إنكار فى المسائل الاجتهادية . إذ لا فضل لمجتهد على آخر . ولا يمنع هذا من الحوار البنّاء ، والتحقيق العلمى النزيه فى ظل التسامح والحب .

* *

● الحركة الإسلامية بالأمس :

لقد قامت الحركة الإسلامية الحديثة فى العالَم العربى منذ بضعة وأربعين عاماً . وقد جمعت كل العناصر اللازمة للحركة الناجحة ، من التجميع والتنظيم والتخطيط ، ولم تكن فى نشأتها عفوية ولا عاطفية ، كما ظن بعض الأخوة المخلصين . فإن الذى يطلع على نظمها الأساسية ، ويقرأ رسائلها ونشراتها ويصغى إلى المؤسسين من أعضائها ، يؤمن بأنها كانت على قدر كبير من حُسن التخطيط والتنظيم ، وعبقرية البناء و « التصميم » وأنها بهرت القريب والبعيد بذلك ، وأنها كانت تعرف أهدافها ، وتعرف طريقها . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، ولا كل ما يخطط له يقدر على تنفيذه ، وحسب المؤمن أن يفكر ويجتهد وينوى ويعمل ، أما النتائج فحسابها إلى الله ، ولكل امرىء ما نوى ، ولكل مجتهد أجره .

ولقد أدّت الحركة الإسلامية خدمات جلى ، وخلقت صحوة فى العالَم الإسلامى كله ، وأعادت للناس الثقة بالإسلام ، وربّت عشرات الألوف من الشباب الواعين المخلصين الذين وصفوا بأنهم « رهبان الليل وفرسان النهار » وصحّحت مفاهيم طالما شاعت بين المسلمين ، وشوّهت جمال الإسلام ، وقدّمت للمكتبة الإسلامية ثروة طائلة فى العقيدة والتشريع والأخلاق ، وفى كل جوانب الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية .

وكان بجوار مِداد العلماء ، دماء الشهداء التى روت بها أرض النبوات « فلسطين » التى تبنت قضيتها ، يوم لم يكن يعى أكثر العرب شيئاً عن حقيقة قضية فلسطين ، فهناك تعلّم هذا الشباب « صناعة الموت » كيف يموت فى سبيل اللّه ، وكيف يميت أعداء اللّه . ودماء أخرى روت ضفاف القناة فى مقاومة الاحتلال الأجنبى ، ودماء زكية غيرها ذهبت فى مقاومة الطغيان [1] ، يوم حنى الأكثرون رؤوسهم له خوفاً ، وسار كثيرون فى ركابه طمعاً !

ولولا أن الحركة أثبتت وجودها بالفعل قبل القول ، ما تألّب الأعداء عليها وأحاطوا بها من كل جانب ، وحركوا عملاءهم هنا وهناك ، لينزلوا بها ضربات دامية ، ومحناً قاسية ، سيقشعر العالم لهولها يوم يكتبها التاريخ ، وسيكتبها عن قريب - إن شاء اللّه [2] .

---

(١) مثل دماء الشهداء : عبد القادر عودة ، ومحمد فرغلى ، ويوسف طلعت ، وإبراهيم الطيب ، وسيد قطب ، وعبد الفتاح إسماعيل ، ويوسف هواش ، وغيرهم ممن نصبت لهم المشانق بعد محاكمات سيكشف التاريخ عن مآسيها عن قريب ، ومثل دماء بضع وعشرين قتلوا برصاص حراسهم فى « ليمان طرة » فى وضح النهار ، وعشرات وعشرات آخرين قتلوا تحت السياط ودفنوا سراً فى ظلمات الليل . ولا أدرى لماذا لم تثر قضاياهم بصورة واضحة ، ضمن قضايا التعذيب حتى اليوم ؟!!

(٢) ما ذكرناه هنا مجرد إشارات ورموز لما قدمته الحركة الإسلامية الحديثة والتفصيل يحتاج إلى كتاب ، بل كتب . وللأسف لم يكتب تاريخ الحركة الإسلامية إلى اليوم كتابة علمية منظمة ، وهذا مما يؤخذ على رجالها ، ويمكن الرجوع لشىء من هذا التاريخ فى مثل : مذكرات الدعوة والداعية للشهيد حسن البنا .. الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين .. والمقاومة السرية فى قناة السويس للأستاذ كامل الشريف .. الإخوان والمجتمع المصرى للأستاذ شوقى زكى .. الإسلام فكرة وحركة وانقلاب للأستاذ فتحى يكن .. الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة للدكتور إسحاق الحسينى .

وليس معنى هذا أن الحركة سليمة من العيوب ، خالية من المآخذ ، كلا .. فلا شك أن كثيراً من المآخذ والمعوقات التى جعلناها معوقات من داخل الحركة . قد أصابها شىء منها بقدر ما ، يختلف من معوق لآخر ، ولا ريب أن الحركة تحاول التغلب على المعوقات وتلافى أسباب الضعف والانكماش ، وتجاهد للأخذ بأسباب القوة والنمو ، حريصة على أن يكون يومها خيراً من أمسها ، وأن يكون غدها خيراً من يومها ، ومَن سار على الدرب وصل ، إذا صلحت النيَّة ، وصدقت العزيمة .

* *

● الحركة الإسلامية غداً .. ملامحها وقسماتها :

أكتفى هنا بأن أضع خطوطاً عريضة ، هى بمثابة الملامح والقسمات المعبرة عن وجه الحركة الإسلامية المنشودة ، المرجوة لغد الأمة الإسلامية ، كما أتصورها ، وهى تأكيد وتفريع للمعانى التى ذكرتها فى هذا الفصل :

١ - أن تعمل وتحافظ وتحرص على تقوية الرابطة بين أبنائها ، فكرياً بتنمية المفاهيم المشتركة ، وروحياً بتعميق معنى الأخوة فى الله ، وأخلاقياً بتثبيت فضائل التسامح وخفض الجناح ، وترك المراء ، والتماس الأعذار ، وتقدير وجهات نظر الآخرين وأشباهها . وإدارياً بوحدة التنظيم ووحدة القيادة .

٢ - أن تغلّب العمل للحاضر ، والتخطيط للمستقبل ، على التغنى بأمجاد الماضى السارة ، أو اجترار آلامه المحزنة ، فهذا وذاك عمل سلبى لا يؤتى ثمرة ، ولا يجىء بنتيجة .

كن ابن مَن شئتَ واكتسب أدباً ... يغنيك محموده عن النَسَبِ

إن الفتى مَن يقول : ها أنذا ... ليس الفتى مَن يقول : كان أبى

٣ - أن تهتم بالتربية والتكوين ، على قدر اهتمامها بنشر الفكرة ، فلا يكفى أن تضم إليها أعداداً هائلة ، لا تقدر على توجيههم وحُسن تربيتهم ،

ولهذا يجب عليها أن تهتم بتربية الطليعة المؤمنة الواعية التى يبزغ منها القادة والموجهون والمربون .

ومعنى هذا أن تعنى بالكيف قبل الكم ، وباللباب لا بالقشور ، فرُبَّ قِلَّة واعية مؤمنة خير من كثرة كغثاء السيل ، فليس المهم هو العدد إذن ، بل انتقاء العناصر الجيدة ، والمعادن الأصيلة ، وفى الحديث : « الناس كإبل مائة ، لا تجد فيها راحلة » .

٤ - أن تربى أبناءها على أن العمل للإسلام هو فى ذاته واجب دينى وعبادة وقُربة إلى الله ، أثمر فى الدنيا نصراً ونجاحاً أم لم يثمر ، وأن المطلوب من المسلم هو السعى والجهاد لا النجاح والانتصار . وأن الله لن يسأل الناس يوم القيامة لماذا لم تنتصروا ؟ بل : لماذا لم تعملوا ؟

على أن انتشال الفرد المسلم من براثن الجاهلية الحديثة هو فى نفسه غاية يسعى إليها ، وكسب يحرص عليه ، فلا يهونن أحد من شأنه ، ولا يقولن فى يأس : وماذا وراء ذلك ؟!

٥ - أن تُعلِّم أبناءَها أن الصدع بما أمر الله والجهر بالدعوة فى وجوه المخالفين والمعاندين ، والثبات على العقيدة والفكرة ، والصبر على طول الطريق ، وشدة وعثائه ، وكثرة قطاعه - من أعظم الجهاد فى سبيل الله ، وهو الذى نزل فيه أول سورة العنكبوت :

﴿ آلم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ (١) .. ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِه ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ (٢) .. وآخر سورة العنكبوت : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ ﴾ (٣) .. وهو الذى أُمِرَ به الرسول فى سورة

---

(١) العنكبوت : ١ - ٢ (٢) العنكبوت : ٦ (٣) العنكبوت : ٦٩

الفرقان المكية : ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ [1] جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [2] .. سماه الله جهاداً كبيراً ، حتى لا يهوِّن أحدٌ من قدره فى يوم من الأيام .

٦ - أن تحاول ملء الفراغ عند أفرادها ، بما ينفعهم وينفع بالتالى حركتهم معهم ، وأن تشغل كل فئة بما يناسبها وكل فرد بما يلائمه ، ولتحذر من طول الفراغ فإنه ممل وقاتل ، ولا يؤدى إلا إلى اليأس والانقطاع ، أو الميل والانحراف . إن الفراغ كالصحة ، كلاهما نعمة يجب أن تُقابَل بالشكر ، وإن غفل جمهور الناس عنهما ، وفى حديث البخارى : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » وشكر هذه النعمة أن يُستغل الفراغ فى علم نافع أو عمل صالح ، يرضى عنه الله ، وينتفع به الناس ، وإلا استحال الفراغ إلى نقمة ، وخصوصاً عند الشباب بما لديهم من فائض طاقة وحيوية ، وفى هذا قال أبو العتاهية فى أرجوزته :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أى مفسدة

٧ - أن تضع كل فرد فى موضعه وفقاً لموهبته وخبرته ، حتى يحسن أداء دوره فيه ، ولا تحقر من دور امرىء ما ، مهما ضؤل حجمه أو صغر شأنه ، فإنما لكل امرىء ما نوى ، والله لا ينظر إلى الصور بل إلى القلوب . وفى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان لخالد بن الوليد مكانه ، ولحسان مكانه ، ولأبى هريرة مكانه ، الأول ينصر الإسلام بسيفه ، والثانى بشعره ، والثالث بعلمه ، وكلٌّ مجاهد فى سبيل الله .

٨ - ألا تضخِّم جانباً على حساب جانب أو جوانب أخرى ، بل توازن بينهما بالمعروف ، وتعطى كل جانب حقه ، بلا إسراف ولا تقتير ، فلا تهمل التربية الفكرية من أجل التربية الروحية ، ولا الروحية من أجل الفكرية ، ولا تغفل التوعية السياسية ، بسبب الإعداد البدنى أو الجهادى ، ولا العكس ، ولا تقصر

---

(١) أى بالقرآن . (٢) الفرقان : ٥٢

فى التفقيه الشرعى من أجل التثقيف الحركى ، ولا العكس . وهكذا فى كل النواحى .

٩ - أن يعلو فيها صوت العقل على صوت العاطفة ، وحُجَّة الفقيه على جلجلة الخطيب ، ومنطق المفكرين على مشاعر المتحمسين ، وأن يتقدم فيها مَن هو أنضج فكراً ، لا مَن هو أطول لساناً .

وأن تزن أعمالها وتصرفاتها كلها وفقاً لأحكام الشرع ومصلحة الفكرة ، لا استجابة لشعور وقتى ، ولا إرضاء لحماسة العامة ، أو أهواء الخاصة . فكل موقف تتبناه الحركة ، وكل عمل تقوم به ، وكل قرار تتخذه ، لا بد أن يكون مستنداً إلى أسس شرعية ، من نصوص الكتاب والسُنَّة ، وما أرشدا إليه من أدلة معتبرة ، كالقياس والمصالح المرسلة ، وسد الذرائع ، ومراعاة العُرف ، بما لها من شروط وقيود .

١٠ - أن تُقلع عن التشديد والتزمت ، وتتبنى جانب التيسير على الناس فى التشريع والأحكام والآداب الاجتماعية ، وخاصة فيما عمّت به البلوى عملاً بحديث : « يَسِّروا ولا تُعسِّروا ، وَبشِّروا ولا تُنفِّروا » ، وبسُنَّة النبى ﷺ : « أنه ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً » .

١١ - أن تعمل على تحديد « المفاهيم » وضبط مدلول الكلمات السيَّالة ، فلا تدع أنصارها ولا خصومها يضعون لها تفسيرات شتَّى عند أنفسهم ، ما بين مُوسِّع ومُضيِّق ، ثم ينسبونها إليها ، مثل مفهوم « الجاهلية » ومفهوم « القومية » أو « الوطنية » أو « الحرية » أو « الحاكمية » وغيرها .. إن ترك هذه المفاهيم وأمثالها دون توضيح وتحديد ليس وراءه إلا البلبلة والحيرة والتذبذب بين شتَّى الاتجاهات المتناقضة ، ما بين غالٍ مسرف ومفرِّط مقصر .

١٢ - أن تتخذ « الرفق » لها شعاراً سواء فى دعوة المحايدين ، أم فى مناقشة الخصوم ، أم فى معاملة الأنصار ، متخذة من الرسول الأعظم أسوة

حسنة : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّه لنتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١) .. ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٢) .. وما دخل الرفق فى شىء إلا زانه ، ولا دخل العنف فى شىء إلا شانه ، واللّه يحب الرفق فى الأمر كله ، مع عدم إخلال ذلك بالحزم الواجب ، والشدة فى موضع الشدة .

١٣ - أن تتجنب الثنائية فى القيادة والعمل ، فلا تسمح بوجود قائد سرى ، وآخر علنى ، ونظام فى النور ، وآخر تحت الأرض ، وقادة رسميين ظاهرين فى « الفترينة » وآخرين أخفياء يعملون فى « الورشة » ! وإنما جماعة واحدة ، وقيادة واحدة ، وعمل مشترك ، يتحمل الجميع مسئوليته .

١٤ - أن تخلع المنظار الأسود حين تنظر إلى الأفراد والمجتمع من حولها ، فلا تسارع إلى اتهامهم بالكفر ، وإخراجهم من الإسلام ، بأمور قابلة للتأويل ، محتملة للجدال ، والأصل : تقديم حُسن الظن ، وحمل حال المسلم على الصلاح ، وإبقاؤه على أصل الإسلام ما وُجِد إلى ذلك سبيل . وأكثر الذين يُتّهمون بالكفر هم فى الحقيقة جهّال يجب أن يتعلموا ، لا مرتّدون يجب أن يُقتلوا ، وقد عصمت دماءَهم وأموالهم « شهادة أنْ لا إله إلا اللّه ، وأنّ محمداً رسول اللّه » وحسابهم بعد ذلك على اللّه .

أما الذين شرحوا بالكفر صدراً ، وأعلنوه جهرة ، فيجب أن يوضعوا حيث وضعوا أنفسهم ، و ﴿ كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٣) ..

١٥ - ألا تستعجل الطريق إلى أهدافها ، وتحاول قطف الثمرة قبل نضجها ، فالعجلة من الشيطان ، وهى لا تؤدى إلى خير . وعليها أن تعتصم بالصبر

---

(١) آل عمران : ١٥٩ (٢) النحل : ١٢٥ (٣) الطور : ٢١

واليقين ، فهما جناحا الإمامة فى الدين : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ، وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) .. وفى الحديث : « الأناة من الرحمن ، والعجلة من الشيطان » .

ومن ذلك : ألا تتعجل الاصطدام بالسُلطات ، لا لمجرد حب السلامة ، وطلب العافية ، ولكن لتوفير طاقات أبنائها ، وتجنيبهم الشدائد ما أمكنها ، إلا ما فُرِض عليها فتتحمله وهى صابرة محتسبة ، وفى الحديث : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا اللّه العافية ، ولكن إذا لقيتموه فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » . وكان عمر رضى اللّه عنه لا يحَب المجازفة بالمسلمين فى حرب يخشى عواقبها ، حتى قال يوماً : « لَمُسْلِمٌ واحد أحب إلىّ من الروم وما حَوَت » !

١٦ - أن تجانب الغلو فى كل أمورها ، فقد جاء فى الحديث : « إياكم والغلو فإنما أهلك مَن كان قبلكم الغلو » .

فلا تغلو فى الحب إذا أحبَّتْ ، ولا فى الكُرْه إذا كرهت . ولا تضفى على مَن تحب قداسة الملائكة ، ولا تلقى على مَن تكره نجاسة الشياطين . لا تعرف للأول سيئة ، ولا تذكر للثانى حسنة ، فهذا ضد العدل الذى أمر به الإسلام مع العدو والقريب .

ومثل ذلك المدح والذم ، والإقبال والإعراض ، والنظر إلى النفس ، وإلى الغير .

ومن ذلك : ألا تبالغ فى تقدير طاقاتها ، تضخيماً وتهويلاً ، فتغتر وتطغى ، أو تصغيراً وتهويناً ، فتيأس وتفتر . ورحم اللّه امرءاً عرف حدّه ، فوقف عنده .

---

(١) السجدة : ٢٤

١٧ - أن تتعصب للمبادىء لا للأشخاص ، وللحقائق لا للأشكال ، وللفكرة لا للجماعة ، وللمسميات لا الأسماء .

١٨ - أن تقوِّم تجاربها ومواقفها ، وتستفيد من أخطائها ، ومن تجارب كل الحركات الإسلامية المعاصرة أو السابقة ، ولا حَرَج على العامل أن يخطىء ما دام خطؤه بعد تحرٍّ واجتهاد ، إنما الحَرَج أن يتمادى فى الخطأ ويصرّ عليه ، ولا يستمع إلى نصيحة أو تنبيه ، ومعنى هذا : أن يكون عندها القُدرة على نقد ذاتها ، وإعادة النظر فى خططها ، وترتيب أهدافها ، وتطوير وسائلها وتحسينها ، أو تغييرها إذا اقتضى الأمر . ولا تكتفى بالتقليد وإبقاء القديم على قِدَمه ، وإغلاق باب الاجتهاد على مَن يقدرون على التفكير والتجديد . فليس وراءَ هذا إلا الجمود . وليس وراءَ الجمود إلا الموت .

١٩ - أن ترحب بكل نقد بنّاء مخلص ، ولو جاءَ من خصم لها ، فقد تصحح به خطأ ، أو تسد به فجوة ، أو توقف به غلواً ، أو تمنع به انحرافاً . ورضى اللّه عن الإمام الشافعى الذى نسبوا إليه قوله :

عِداتى لهم فضل علىّ ومِنَّةٌ ... فلا باعد الرحمن عنى الأعاديا

فهم بحثوا عن زلّتى فاجتنبتُها ... وهم نافسونى ، فارتكبتُ المعاليا

٢٠ - أن تتجه إلى الإيجابية والبناء ، بدل السلبية والهدم - شعارها : نبنى ولا نهدم ، نجمع ولا نفرق ، نقوىّ ولا نضعف . وقد قيل : خير من أن تلعن الظلام ألف مرة ، أضىء شمعة واحدة .

٢١ - أن تغسل صدرها من الضغينة والحقد ، ولو على خصومها ، وأن تعامل الناس بالسماح والحب ، حتى يفهم الناس أن أبناءَها أصحاب رسالات لا طلاّب ثارات .

٢٢ - أن تتبنى موقف التسامح والودّ مع المخالفين فى الرأى ، وتتعاون مع كل عامل للإسلام غيور عليه ، ومتخذة شعارها قاعدة المنار الذهبية : « نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » .

٢٣ - ألا تستهلكها المعارك المؤقتة ، والمسائل الجانبية ، ودوامة السياسة اليومية والخلافات الحزبية التى لا تنتهى ، بل توفر جهدها ووقتها وطاقتها للمعارك المصيرية ، والقضايا الكبيرة .

٢٤ - أن تقدِّر لكل ذى جهد جهده ، وتشكر لكل ذى جهاد فضله ، من فرد أو جماعة ، ممن سبقوها أو عاصروها ، ولو لم يكونوا أنصاراً لها ، فإن من خصال الإيمان الإنصاف من النفس ، والعدل ولو مع العدو : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ (١) .. ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ ﴾ (٢) ..

هذه - كما قلت - ملامح وقسمات للحركة الإسلامية المنشودة ، ذكرتها على وجه الإشارة والإجمال ، حتى ييسر الله لى التوضيح والتفصيل فيما بعد أو يتولاه مَن هو أقدر منى على ذلك من دعاة الحركة ومفكريها . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

* * *

(١) الأنعام : ١٥٢ (٢) المائدة : ٨